الأصنام في الشعر الجاهلي

غسان عزيز حسين
قسم اللغة العربية- كلية الآداب
جامعة الطائف

الأصنام في الشعر الجاهلي

غسان عزيز حسين
قسم اللغة العربية- كلية الآداب
جامعة الطائف

مُقدِّمة

عُرفت الوثنية لدى الكثير من الأمم القديمة في مرحلة من مراحل تطورها الديني ، فقد عرفها اليونان والصينيون والهنود والمصريون ، كما عرفها الآشوريون والبابليون والفينيقيون وغيرهم من الأمم .

والعرب قبل الإسلام مثل سائر هذه الشعوب تعبّدوا الآلهة ، وفكروا في وجود قوى عليا لها عليهم حكم وسلطان ، فحاولوا كما حاول غيرهم التقرب منها بغية استرضائها بمختلف الوسائل والطرق ، ووضعوا لها أسماء وصفات ، وخاطبوها بألسنتهم وبقلوبهم ، وسلكوا في ذلك جملة مسالك ، هي ما نسميها في لغاتنا : « الأديان »[1] .

وقد عرّف بعض العلماء الدين : إنه إيمان بكائنات روحية تكون فوق الطبيعة والبشر ، يكون لها أثر في حياة هذا الكون . كما عرفه آخرون : إنه استمالة واسترضاء لقوى هي فوق البشر ، يؤمنون بأنّها تدير وتدبر سير

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، لجواد علي ٥/٦ .

الطبيعة ، وسير حياة الإنسان ، وهو عند بعض آخر : شعور وتفكير عند فرد أو جماعات بوجود كائن أو كائنات إلهية[١] .

أما الدين في تعريف علماء اللغة فهو[٢] : « العادة والشأن . تقول العرب : ما زال ذلك ديني وديدني ، أي : عادتي . والدين بمعنى الطاعة والتعبد .

وقد ورد في الحديث : أنه عليه السلام كان على دين قومه ، أي : كان على ما بقي فيهم من إرث إبراهيم من الحج والنكاح والميراث ، وغير ذلك من أحكام الإيمان » .

فالدين – مهما قيل في تعريفه – شعائر تظهر على أهله ، فتميزهم عن غيرهم من أتباع الديانات الأخرى ، كما في العبادات والمأكولات والمعابد واللغات وما شاكل ذلك[٣] . ولهذه الأمور أثر بالطبع في مختلف النواحي الاجتماعية والثقافية ، إذا تطبع أتباع الدين بطابع خاص .ولقد تجلت هذه الوثنية عند الأمم القديمة في عبادة مظاهر الطبيعة وحيواناتها وكواكبها ، وخاصة الشمس والقمر ، وأحياناً تظهر الوثنية في عبادة الإنسان . ويبدو هذا واضحاً في عبادة الأبطال والأسلاف العظماء . وقد صورت هذه المعبودات – غالباً – في تماثيل حجرية أو معدنية أو خشبية[٤] ، وكلها ترمز إلى الآلهة المعبودة[٥] . هذه العبادة للتماثيل المصورة ، التي ترمز إلى آلهة عدة مختلفة ، هي ما نسميه بالوثنية . وتزعم أغلبية الروايات والأخبار العربية ، أن الوثنية انتشرت بعد الديانة التوحيدية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام

(١) يراجع آراء العلماء في تعريف الأديان في المفصل ٥/٦ – ٦ .

(٢) لسان العرب « دين » .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/٦ .

(٤) اللسان « وثن » .

(٥) الملل والنحل للشهرستاني ، تحقيق كيلاني ٣٥٩/٢ ، وتاريخ الجنس العربي ، دروزة ١٦٠/٣ .

، وأنها لم تكن إلا انحرافاً عن تلك الديانة ، بل إن السبب في نشأتها هو تعظيم العرب لكعبة مكة وحرمها .

كما تذكر هذه المصادر القديمة[١] : « أن إسماعيل بن إبراهيم لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثير حتى ملأوا مكة ،

ونفوا مَنْ كان بها من العماليق . ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً فتَفَسَّحوا في البلاد والتماس المعاش »[٢] .

« وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم ، وصبابة بمكة ، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، تيمناً منهم بها وصبابة بالحرم وحباً له ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبّوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجثوا – استخرجوا – ما كان يعبد قوم نوح منها ، على إرث ما بقي فيه من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت ، والطواف به والحج والعمرة ، والوقوف على عرفة ومزدلفة ، وإهداء البُدْن ، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه » .

---

(١) الأصنام تأليف ابن الكلبي ، تحقيق أ. أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م .

« ص٦ » .

(٢) الأصنام ص٦ ، والسيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق إبراهيم الأبياري ورفاقه ، دار الكنوز الأدبية بيروت ، لاط لات . « ٧٧/١ » .

فبداية هذه الوثنية العربية – في هذه الروايات – هي عبادة حجارة لا أشكال لها ترمز إلى البيت الحرام ، وربما كانت ترمز إلى الحجر الأسود الذي يحظى بقدسية كبيرة لدى الجاهليين . ولا يعني خضوع العرب للوثنية وتفشيها بينهم أنهم لم يتفرقوا على ديانات أخرى ، فهم – أي العرب – لم يكونوا بمعزل عن الأمم المجاورة لهم ودياناتها قديماً ، فضلاً عن احتكاكهم بوثنية أهل العراق وبلاد الشام ، فإنهم بلا ريب قد تعرفوا على عبادة الكواكب عند تلك الأقوام.[1] « وكان أول من غيّر دين اسماعيل ، فنصب الأوثان وسيّب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحّر البحيرة ، وحمى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لُحَيُّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة ... وكان الحارث هو الذي يلي أمر الكعبة ، فلما بلغ عمرو بن لحي ، نازعه في الولاية وقاتل جُرْهُماً ببني إسماعيل ، فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم من بلاد مكة ، وتولى حجابة البيت بعدهم . ثم إنّه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبلقاء من الشام حَمَّةً إن أتيتها برأت . فأتاها فاستحم بها ، فبرأ . ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا . فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة »

فلما صنع هذا عمرو بن لحي ، دانت العرب للأصنام وعبدوها واتخذوها.[2]« واستُهْتِرَت العرب في عبادة الأصنام : فمنهم مَنْ اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء بيت ، نصب

(١) الأصنام ص٨ ، والسيرة النبوية ٧٦/١ – ٧٧ .

(٢) الأصنام ص٣٣ .

حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره ، مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسمّوها « الأنصاب » .

فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ، وسمّوا طوافهم الدَّوار .

فكان الرجل إذا سافر فنَزل منْزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربّاً ، وجعل ثلاث أثافيّ لقِدْرِهِ ، وإذا ارتحل تركه . فإذا نزل منْزلاً آخر ، فعل مثل ذلك : فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ، ويتقربون إليها . وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة عليها ، يحجونها ويعتمرون إليها ، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم ، إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها والصبابة بها » .

ونجد في القرآن الكريم جواباً واضحاً عن فلسفة العرب وتعليلهم لعبادة الأصنام ، واتخاذهم أولياء من دون الله ، وإذ نراهم يردون على الاعتراض الموجه إليهم في عبادة غير الله[1] : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ .

إذن فنشأة الوثنية في الحجاز تعود إلى زمن بعيد جداً عن الإسلام ، ومن المرجح أن الوثنية قد تطورت عندهم من عبادة أحجار لا أشكال لها إلى عبادة أصنام وأوثان منحوتة . وعلى الرغم من وثنيتهم ظلوا معظمين لإله الكعبة ، يحجون إليه وفي أذهانهم بقايا متناثرة من ديانة التوحيد ، غير أن كثيراً من مظاهر قدسية الإله انتقلت إلى الأصنام المنتشرة في أرجاء الحجاز.

(١)سورة الزمر : ٣/٣٩ ، وانظر تفاسير هذه الآية .

وتختلف نظرة الإنسان إلى الخالق والخلق باختلاف تطوره ، ونمو عقله ، ولهذا نجد فكرة الله تختلف باختلاف مفاهيم الشعوب ودرجات تقدمها ، فهي عند الشعوب البدائية القديمة والحديثة في شكل يختلف عن مفهومها عند الشعوب المتحضرة ، وإذا كان اليونان قد نسبوا إلى آلهتهم كل الصفات والأعمال الإنسانية المعروفة عندهم ، وتصوروهم على شكل بشر ، لهم الفضائل وعندهم الرذائل ، فإننا لم نستطع حتى الآن – من خلال دراستنا للأدب الجاهلي – أن نجلو بوضوح ما كان في ذهن العربي الجاهلي إزاء آلهته ؟ وكيف كان يتصورها ؟ وهل كان يرى فيها عالماً شبيهاً بعالمنا ؟

الحق أنه لا يوجد عند العربي الجاهلي عالم كعالم الآلهة الذي نسجه خيال اليونانيين لآلهتهم ، ولا يكاد يوجد عنده تأليه لمظاهر الطبيعة[١] ولعل هذا ما دفع بعض المستشرقين إلى تقرير[٢] : « أن العرب لم تكن لهم أساطير دينية عن آلهتهم ، كما كان عند غيرهم من الأمم ، كاليونان والرومان والفرس ، وعند بقية الآريين ، بل حتى عند بعض الشعوب السامية الأخرى كالبابليين » .

ودون شك فنظرة العربي للأصنام كانت نظرة اعتقاد بأنها تمتلك مقدرة خاصة تؤثر من خلالها في حياته تأثيراً سلبياً أو ايجابياً لذلك قدّسها وعظّمها ، وأهدى لها ، وذبح عندها ، كما نسج خياله حولها روايات مستمدة من بيئته يمكن أن تعد نوعاً بدائياً غير مكتمل من الأساطير الدينية[٣] .

(١) الوثنية في الأدب الجاهلي ، عبد العزيز زيتوني ، وزارة الثقافة السورية ص٨٧ .
(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ١٩/٦ . وينظر فيه رأي جواد علي .
(٣) الوثنية في الأدب الجاهلي ص٨٨ .

أما آلهة الإنسان الجاهلي ، فإنها لم تأخذ شكلاً واحداً ، بل جاءت على أشكال مختلفة ، أغلبها جاء على شكل إنسان ، وبعضها ما جاء على شكل حيوان ، ومنها ما هو أشجار ، أو أحجار . فهل كانت لتلك الأشكال المختلفة علاقة بما كان يتصوره ذهن العربي الجاهلي عن آلهته ؟

الإنسان

من خلال استعراضنا للمصادر القديمة نرى أن معظم أصنامهم كانت على شكل الإنسان ، فالصنم هُبَل كان من عقيق أحمر على صورة إنسان(١) ، مكسور اليد اليمنى . أدركته قريش كذلك ، فجعلوا له يداً من ذهب . « أما وَدّ فقد كان تمثال(٢) رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذُبِرَ عليه حلتان ، مُتَّزِرٌ بِحُلَّةٍ ، مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنكب قوساً ، وبين يديه حَرْبَةٌ فيها لواء ووَفْضَةٌ – أي جعبة – فيها نبل » .

والفَلْسُ كان أنفاً احمر في وسط جبلهم الذي يقال له أجأ ، أسود كأنه تمثال إنسان . وكانوا يعبدونه(٣) . وكتاب الأصنام يزخر بأسماء أصنام يظهر أن المقصود منها رجل . « ذو الكفين ، ذو الشرى، إساف ... »

ولو عدنا إلى الروايات القديمة التي تذكر أصنام قوم نوح عليه السلام لوجدنا بعضها يشير إلى أن وداً ، وسواعاً ،

ويغوث ، ويعوق ، ونسراً . كانت رجالاً صالحين ، ماتوا في شهر واحد(٤) . فنحتت الأصنام على صورهم . فأشكال بعض هذه الأصنام قد توحي(٥) أن بعضها قد صور عظماء الرجال وأشرافهم ، فهل يعني هذا أن العرب الجاهليين عبدوا زعماءهم

(١) الأصنام ص٢٨ .
(٢) الأصنام ص٥٦ .
(٣) الأصنام ص٥٩ .
(٤) الأصنام ص٥١ .
(٥) قصة الحضارة « ول ديورانت » ، المجلد الأول ، الجزء الأول : ص١٠٩ .

وعظماءهم ، فاتخذت الوثنية لديهم شكل عبادة الأسلاف ، كما فعلت بعض الأمم القديمة ؟

الحيوان

كذلك اتخذت بعض الأصنام أشكالاً حيوانية ، كما تذكر المصادر القديمة حيث ورد أن الصنم يغوث كان على صورة الأسد ، ويعوق كان على صورة الفرس ، ونسراً كان على صورة نسر الطائر[١] .

كما أننا نجد أن بعض أسماء الأصنام هي أسماء أو صفات لبعض الحيوانات المعروفة في الجزيرة العربية ، فربما دلت هذه الأسماء والصفات على أن تلك الأصنام كانت على شكل حيوانات . فمنها اليعبوب ، وهو في اللغة : الفرس الطويل السريع[٢] .

واليعبوب : فرس الربيع بن زياد . ويبدو أن بعض الحيوانات كانت لهم أهمية خاصة لدى العرب الجاهليين دفعتهم إلى تعظيمها ، وقد زُعم[٣] أنهم عبدوها أيضاً ، فقد ذكر أن طيئاً كانت تعبد فيما تعبد جملاً أسود .

الأشجار

وكما اتخذت الوثنية صور إنسان وحيوان اتخذت كذلك في بعض صورها شكل عبادة الأشجار . فقد روي أن العُزَّى[٤] كانت ثلاث شجرات سَمُرات .

كما يروي صاحب السيرة النبوية[٥] أن كفار قريش ومَنْ سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة يقال لها : ذات أنواط يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً ، فهم كانوا يقومون تجاه هذه الشجرة بعبادات شبيهة بالعبادات التي كانوا يقدمونها لأغلب أصنامهم ، فهي فيما يبدو في تصورهم وثن كبقية الأوثان ، ويجعلنا نرجح هذا الرأي تتمة الخبر الوارد في السيرة : « .... فرأينا ونحن

(١) الوثنية في الأدب الجاهلي ص١٠٤ .
(٢) اللسان « عبب » .
(٣) الوثنية في الأدب الجاهلي ص١٠٤ .
(٤) الأصنام ص٢٥ .
(٥) السيرة النبوية ٤٤٢/٢ .

نسير مع رسول الله ﷺ سِدْرة خضراء عظيمة ، قال : فتنادينا من جنبات الطريق : يا رسول الله ، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . قال رسول الله ﷺ : الله أكبر ، قلتم – والذي نفس محمد بيده – كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون » . إنها السنن ، لتركبن سنن مَنْ كان قبلكم .

« وفيما يبدو أن عبادة الأشجار كانت شائعة عند الجاهليين ففي خبر آخر يسوقه صاحب السيرة عن انتشار المسيحية بنجران ، فقد كان أهل نجران يومئذ على دين العرب ، يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم لها عيد في كل سنة ، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء ، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً » .

الأحجار

إذا أمعنا النظر في كتاب الأصنام ، ووجدنا أن بعض الآلهة المعبودة عندهم كانت أحجاراً لا تصور شيئاً معيناً . فاللات[١] بالطائف : « كانت صخرة مربعة ... وكانوا قد بنوا عليها بناءً . وكانت قريش وجميع العرب تعظمها »

وسَعْد[٢] : كان صخرة طويلة . « وذو الخَلَصَة[٣] : كان مروة بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج » .

والعربي الجاهلي شأنه شأن بقية أفراد الأمم القديمة ، يعتقد بوجود قوى عليها غير ظاهرة في هذا الكون ، تستطيع أن تساعده في تأمين رزقه من جهة ، وفي الانتصار على أعدائه من جهة أخرى . وقد اعتبر هذه القوى الخفية آلهة وأرباباً ، لذلك كان يلجأ إليها مناجياً لتحقيق هاتين الغايتين . وقد أشار لذلك ابن الكلبي في كتابه الأصنام في معرض حديثه عن قصة مرض عمرو بن لحي وإدخاله للأصنام : « .... فقالوا : نستسقي بها المطر ، ونستنصر بها على العدو » .

(١) الأصنام ص١٦ .
(٢) الأصنام ص٣٦ – ٣٧ .
(٣) الأصنام ص٣٤ .

وهذا ما يؤكد لنا أن العرب الجاهليين كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تجلب لهم الخير ، وكلما تقدموا إليها بالنذور والأضاحي زادت في منحهم الرزق الوفير . وبناء على ذلك لم يكن يستغرب وجود أصنام تختص بالرزق عندهم ، فمن ذلك أنه كان في مكة عند المروة صنم يدعى « مطعم الطير » . وكان الناس يحجون إليه في مواسم الحج[١] .

وكان هبل منصوباً على بئر في جوف الكعبة[٢] . مما يجعلنا نظن أنهم كانوا يعتقدون بأنه كان يهيبهم الماء في صحرائهم القاحلة ، كما نجد صنماً آخر ملاصقاً لنبع ماء ، هو ذو الشرى ، وكان به وَشَلٌ من ماء يهبط من جبل[٣] .

كما كانوا يعتقدون أن الصنم قُزَح يرسل إليهم الرعد والعواصف[٤] ويسير إليهم المطر والغيث . فالآلهة التي يعبدونها – حسب اعتقادهم – والتي تحل في تلك الأصنام ، كان لها مقدرة العطاء والرزق في صحرائهم القاحلة . فهم يلجأون إليها – كلما ضاقت بهم صحراؤهم وضنّت عليهم بأسباب الرزق – كي ترويهم وتطعمهم .

أما الغاية الثانية من هذه العبادة – كما أسلفنا – فهي اعتقادهم بأن لهذه اللآلهة قدرة على نصرتهم ، وهو أمر بالغ الأهمية في حياة العرب الجاهليين . وقد أشار القرآن لهذا الاعتقاد صراحة في العديد من سوره ، منها قوله[٥] : ﴿ **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ**﴾ .

فهم كانوا يعتقدون أن الآلهة تصحبهم في غزواتهم ، وتقاتل معهم ، وتنصرهم على أعدائهم . فالإله يغوث كان يسير مع عبدته في حروبهم وغزواتهم ليحقق لهم النصر على أعدائهم ، وهذا ما يشير إليه الشاعر الجاهلي بقوله[٦] :

وسارَ بِنَا يَغُوثُ إلى مُرَادٍ فَنَاجَزْناهُمُ قَبْلَ الصَّبَاحِ

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٢٨٧/٦ .
(٢) الأصنام ص٢٧ ، والسيرة النبوية ٨٢/١ .
(٣) السيرة النبوية ٣٨٤/١ .
(٤) المفصل في .... ٢٨٧/٦ .
(٥) سورة يس : ٧٤، ٧٥ .
(٦) الأصنام ص١٠ .

لذلك لا نستغرب بعدها أن نرى أبا سفيان – في يوم أحد – يعتقد أن هبل يصحبه ويرعاه في المعركة ، وهو الذي نصره على المسلمين يومها ، فيصيح بعد المعركة[١] : « أَعْلُ هُبَل » .

وأن العزى هي التي انتصرت وارتفعت رايتها فيخاطب المسلمين بقوله[٢] : « لنا العزَّى ولا عُزّ لكم » .

ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن لكل آلهة جنوداً أقوياء تقاتل معهم في المعركة ، وقد أشار لذلك أبو سفيان حين أسلم واعتذر للرسول الكريم مما كان مضى ، بقوله[٣] :

لعَمْرُكَ إنِّي يومَ أحملُ رايةً لتَغْلِبَ خَيْلُ اللاتِ خَيْلَ مُحمدِ

لكالمُدْلَج الحيرانِ أظْلَمَ لَيْلُهُ فهذا أواني حين أُهْدَى وأَهْتَدِي

كما أن بعض العرب كانت تتوجه إلى أصنامها قبل خروجها للمعركة كي تمنحهم الحماية ، وتصحبهم في المعركة ، لتنصرهم على أعدائهم ولهذا يشير شاعر قريش عبد الله بن الزبعرى السهمي ، حين خرجت قريش لحرب الرسول الكريم ﷺ .

في غزوة الخندق[٤] :

واذكُرْ بَلاءَ معاشِرٍ واشْكُرهُمُ سارُوا بأجمعِهِمْ من الأنْصابِ

أَنْصابِ مكَّةَ عامدين لِيَثْرِبٍ في ذي غَياطلَ جَحفَلٍ جَبْجَابِ

وإذا كان لكل دين شعائر تكون له سمة تميزه عن غيره من الأديان ، فلقد كانت للعرب الجاهليين مظاهر تدل على تعظيمهم لآلهتهم ، وإحلالهم إياها مكانة جليلة ، لقوتها وسطوتها .

ولقد كان أولى هذه المظاهر ، أنهم جعلوها مدار أيمانهم الغليظة ، وعقدوا بها عهودهم لتوثيقها وتمتينها ، وخشوا خشية شديدة من الحنث بالأيمان المعقودة عليها .

(١) اللسان « هبل » .

(٢) صحيح البخاري ، مطابع الشعب ، القاهرة ، لاط لات . ١٢١/٥ .

(٣) السيرة النبوية ٤٠١/٢ .

(٤) ديوانه ، جمع الجبوري ص٢٩ ، والسيرة النبوية ٢٥٧/٢ .

وأكثر الأصنام التي أقسموا بها كانت اللات ، فهذا الحارث بن هشام بن المغيرة ، سيد قريش يقسم باللات – كي يعظم قسمه – فيقول[١] :

على أنَّنِي واللات يا قومُ فاعلَمُوا

بكم واثقٌ أنْ لا تُقيموا على تَبْلِ

وأحياناً كثيرة كانت اللات تقترن بالعزى في الكثير من أيمانهم ، فهذا أوس بن حجر يقسم بهما معاً ، فيقول[٢] :

وباللاتِ والعُزّى ومَنْ دانَ دِيْنَها

وباللهِ إنَّ اللهَ منهنَّ أكْبَرُ

ولم تقتصر أيمانهم على اللات والعزى ، بل تعدتها لجميع أصنامهم ، فهذا عبد العزى بن وديعة المزني يقسم بمناة أيماناً صادقة مخلصة ، فيقول[٣] :

إنِّي حَلَفْتُ يمينَ صِدْقٍ بَرَّةً

بمَناةَ عندَ محل آلِ الخَزْرجِ

ولقد كانت ديانات الجاهليين ذات حدود ضيقة ، فالإله ، إما إله قبيلة ، وإما إله موضع ، وطبيعي أن تكون صلة الإنسان بإلهه متأثرة بدرجة تفكير ذلك الإنسان ، فإله في نظرهم هو حامي القبيلة ، والموضع ، وهو المدافع عنهم في الحرب والسلم ، لذلك على الجاهليين أن يتقربوا من هذه الآلهة بغية إرضائها ، فيكونوا مطيعين لأوامرها ، محترمين لأحكامها وشعائرها . ولقد جاء هذا الإرضاء مختلف الأشكال والمظاهر ، من أبرزها الحج . ويبدو أن معظم الوثنيين العرب كانوا لدى إحرامهم الحج يجعلون مركز انطلاقهم عند أصنامهم التي يتعبدون لها .

فقد ورد أن الأوس والخزرج كانوا يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ، ولا يحلقون رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوه – مناة – فيحلقوا رؤوسهم عنده ، وأقاموا عنده لا يرون

(١) السيرة النبوية ١٣/٢ .

(٢) ديوانه ، تحقيق نجم ص٣٦ ، والأصنام ص١٧ .

(٣) الأصنام ص١٤ .

لحجهم تماماً إلا بذلك[١] . وكان عباد كل صنم ، إذا أرادوا الحج ، انطلقوا إليه ، وأحلوا عنده ورفعوا أصواتهم بأدعية شتى – يمكن اعتبارها شكلاً من أشكال الصلاة في الجاهلية – ولعلهم كانوا يرددون أدعيات معينة عند طوافهم ، وإلى هذا يشير الشاعر الجاهلي ربيع بن ضبع الفزاري ، حين يصور ارتفاع الأصوات بالدعاء والتسابيح حول صنم الأقيصر بقوله[٢] :

فإنَّنِي والذي نَعْمُ الأنامِ لَهُ
حَوْلَ الأُقَيْصِرِ تَسْبيحٌ وتَهْلِيلُ

كما كانت هذه الاحتفالات تقترن بذبح الهدي – وهي الإبل تهدى للأصنام لتنحر عندها – حيث ينحر الجاهليون هديهم ، ويلطخون أنصاب أصنامهم بالدماء وهذا ما يصوره الشاعر الجاهلي[٣] :

وأنصابَ الأُقَيْرِ حين أضْحَتْ تَسيْلُ على مناكِبها الدِّماءُ[٤]

ولم يبخل الجاهليون على أصنامهم ، فقدموا لها كل شيء ، حتى المأكل والمشرب لاعتقادهم أنها تسرّ بذلك وتفرح ، فقد علقوا على ذي الخلصة القلائد وبيض النعام ، والبرد النفسية ، كما قدموا له الحنطة والشعير ، بل واللبن أيضاً ليشرب ، فهم يعتقدون أن في الصنم روحاً ، وأن في مقدوره التلذذ بهذه النذور »

كما كانوا يهدونه القلائد ، فيضعونها في أعناق الإبل التي تهدى له للنحر ، وهذا ما يشير له النمر بن تولب ، الشاعر الجاهلي بقوله[٥] :

وقامَتْ إليَّ فأَحْلَفْتُها
نَهْدِي قلائِدُهُ تَخْتَنِقْ

(١) الأصنام ص١٤ .
(٢) الأصنام ص٣٩ ، ومعجم البلدان، دار صادر ٢٣٨/١ .
(٣) بدون نسبة في اللسان « قصر » .
(٤) المفصل في تاريخ العرب ١٨٨/٦ – ١٨٩ .
(٥) ديوانه ، جمع القيسي ص٣٦٢ .

كما كانوا يتغنون بأنواع هذه القلائد ، فهي تارة من الودع ، ومرة من الرخام ، حتى تكون هذه الإبل المهداة للآلهة في أجمل حلة وأبهى منظر ، وهذا ما يصوره لنا أبو طالب بقوله[١] :

وحيثُ ينيخُ الأشْعَرُون رِكابَهُمْ
بمُفْضَى السُّيُولِ من إسافَ ونائلِ
مُوَسَّمةُ الأعْضادِ أوْ قَصَراتِها
مُخَيَّسةٌ بينَ السديسِ وبازِلِ

كما كان إهداء الطيب والبخور من أهم المظاهر التي كان الجاهليون يتقربون بها إلى آلهتهم ، فيحرق البخور في المباخر والمجامر لتنبعث روائحه الزكية في أرجاء المعبد ، أما الطيب فكانت تلطخ بها الأصنام وجدران المعبد . إضافة لذلك كانوا يقدمون الأردية لكساء هذه الأصنام . وكانت هذه الأردية تختار من أفخر الأثواب وأثمنها ، وقد أشار لذلك الشنفرى حينما أقسم بأثواب الأقيصر[٢] :

وإنَّ امرأً قد جار سَعْدَ بن مالك عليَّ وأثوابَ الأُقَيْصر يَعْنف

كما كان لهم جماعات تقوم على خدمة أصنامهم ومعابدهم ، تسمى السدنة ، فالسدنة قومة الأصنام ومتولو أمرها ، يقومون على خدمتها ، ولهم دور توجيه الناس توجيهاً روحياً دينياً ، فهم يرعون المعابد والأماكن المقدسة وشعائر الدين ، ويحافظون عليها ، ويضعون قواعدها للناس ، لذلك كان من الطبيعي أن يتمتعوا بمكانة كبيرة وشأن عظيم ، وأن يكون لهم حرمة في النفوس ، يؤكد ذلك رثاء أبي خراش الهذلي لآخر سدنة العزى – دُبَيَّة – وقد قتله خالد بن الوليد ، فيتذكر أيامه وكرمه وأعماله ، فيقول[٣] :

ما لِدُبَيَّةَ منذَ العامِ لَمْ أرَهُ
وَسْطَ الشُّرُوبِ ولَمْ يُلْمِمْ ولَمْ يَطِفِ

(١) السيرة النبوية ٢٧٣/١ .
(٢) ديوان الشنفرى ، صنعة الميمني ص٣٩ .
(٣) ديوان الهذليين ، دار الكتب ١٥٥/٢ – ١٥٦ ، والأصنام ص٢٤ .

لو كانَ حَيّاً لغاداهم بِعُتْرَعَةٍ

فيها الرَّواويق من شِيْزى بنِي الهَطِفِ

أَمْسَى سَقامٌ خَلاءً لا أنيسَ بهِ

إلا السِّباعُ ومَرُّ الريح بالغَرَفِ

وهكذا نجد أن الأدب الجاهلي عكس ديانة العرب الوثنية ، بما تشمله من شعائر ونسك ، ومن تلبية وطواف ، ومن قرابين ونذور ، كانت تعبيراً عن عقيدة الوثنيين بالله وآلهة الأصنام ، وبذلك تكون الوثنية ، شأنها شأن بقية الأديان ، ذات شعائر محدودة ، يقوم بها أتباعها ، فيقدمون لها ما تتطلبه من صلوات وأدعية ، ومن أموال وقرابين .

المصادر والمراجع

- ديوان أوس بن حجر ، تحقيق د. يوسف نجم ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- ديوان الشنفرى صنعة عبد العزيز الميمني ، ضمن الطرائف الأدبية ، دار الكتب العلمية بيروت ، لاط ، لات .
- ديوان عبد الله بن الزبعرى السهم ، تحقيق د. يحيى الجبوري ، مؤسسة الرسالة ، ط٢ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ديوان النمر بن تولب ، تحقيق د. نوري حمودي القيسي ، عالم الكتب بيروت ، ط٢ ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .
- ديوان الهذليين ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥م
- السيرة النبوية ، لابن هشام ، تحقيق إبراهيم الإبياريّ ورفاقه ، دار الكنوز الأدبية ، بيروت لبنان ، لاط ، لات .
- قصة الحضارة ، تأليف ول ديورانت .
- كتاب الأصنام ، لابن الكلبي ، تحقيق أ. أحمد زكي ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م .
- لسان العرب لابن منظور الإفريقي ، دار صادر ، بيروت لبنان ، لاط ، لات
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد علي ط٢ ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م .
- الملل والنحل للشهر ستاني ، تحقيق كيلاني ، د. ط ، د. ت .
- الوثنية في الأدب الجاهلي ، تأليف د. عبد العزيز زيتوني ، وزارة الثقافة السورية ١٩٩٣ م .